روافد

العدد الثالث: 1997

مجلة المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية

الملف: المنصفية

● قمر بندانة ، عودة إلى أزمة أفريل 1922 ●عميرة علية الصغير، العائلة الحسينية أثناء أزمة أفريل 1922 ● حمّادي السّاحلي، مساهمة المنصف باي في الحركة الوطنية 1922 - 1948 ●عدنان المنصر، حول مسألة تعاطف التونسيين مع المحور أثناء الحرب العالمية الثانية ● سعيد المستيري، دخول الحلفاء إلى تونس وعملية عزل المنصف باي ● خالد عبيد، صدى مسألة المنصف باي في أوساط الوطنيين التونسيين بمصر ●وثيقة، رسالة الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى حسين باي حول خطاب المنصف باي بمناسبة تنصيبه (جوان 1942).

دراسات

●سميرة كربول، صورة المرأة المسلمة بتونس من خلال الكتابات الأوروبيّة أثناء الفترة الإستعماريّة ● منصف التايب، تصور العامة للباي ولعدالته في تونس ما قبل الإستعمار ● حبيب قزدغلي، الجالية الروسية بتونس 1920- 1956 ●حسين رؤوف حمزة، المعمرون الفرنسيون وشبح انتفاضة البوادي قبيل أحداث أفريل 1938 ● حبيب بلعيد، المعتقلات ووضع السجين السّياسي بالبلاد التونسية أثناء الفترة الإستعماريّة 1920 - 1947 .

جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية بتونس

روافد
العدد 3. 1997

الفهرس

دراسات

سميرة كربول، صورة المرأة المسلمة بتونس من خلال الكتابات الأوروبيّة أثناء الفترة الإستعماريّة 7
منصف التايب، تصور العامة للباي ولعدالته في تونس ما قبل الإستعمار(بالفرنسية)* 7
حبيب قزدغلي، الجالية الروسية بتونس(1920- 1956) (بالفرنسية)* 25
حسين رؤوف حمزة،المعمرون الفرنسيون وشبح انتفاضة البوادي قبيل أحداث أفريل 1938 (بالفرنسية)*....65
حبيب بلعيد،المعتقلات ووضع السجين السّياسي بالبلاد التونسية أثناء الفترة الإستعماريّة(1920-1947) (بالفرنسية)* 79

متابعات

ملتقيات وندوات(بالفرنسية)* 111
منشورات(بالفرنسية)* 107
أطروحات 41

الملف:المنصفية

قمر بندانة ، عودة إلى أزمة أفريل 1922(بالفرنسية)* 123
عميرة علية الصغير، العائلة الحسينية أثناء أزمة أفريل1922 51
حمادي السّاحلي، مساهمة المنصف باي في الحركة الوطنية (1922 - 1948) 75
عدنان المنصر، حول مسألة تعاطف التونسيين مع المحور أثناء الحرب العالمية الثانية 87
سعيد المستيري ، دخول الحلفاء إلى تونس وعملية عزل المنصف باي (بالفرنسية)* 153
خالد عبيد، صدى مسألة المنصف باي في أوساط الوطنيين التونسيين بمصر 107

وثيقة، رسالة الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى حسين باي حول خطاب المنصف باي بمناسبة تنصيبه (جوان 1942) 137

* انظر القسم الفرنسي

حول مسألة تعاطف التونسيين مع المحور
أثناء الحرب العالمية الثانية

عدنان المنصـــــر
المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية

أولى كثير من المؤرخين إهتمامهم لدراسة موقف الوطنيين التونسيين من الأطراف المتواجهة في الحرب العالمية الثانية وخاصّة موقف قادة الحزب الدستوري الجديد، واهتم عدد قليل منهم بتتبّع المواقف الشعبية ومحاولة فهمها. والواقع أن أهميّة هذا الموضوع لا تكمن فقط في ظاهرة التباين بين رأي عام شعبي متعاطف مع المحور وقيادة وطنية حذرة -إن لم تكن ترجو انتصار الحلفاء - بل إن الهام في هذا المستوى، في نظرنا، هو فهم موقف الرّأي العام الشعبي من السلطة عموما وخاصّة منها الإستعمارية وكذلك موقفها من نخبتها الوطنية التي انقسمت عن نفسها فأدّى ذلك إلى ظهور أساليب جديدة للعمل الوطني غلب عليها الطابع المحلّي .

أ- التونسيون بإزاء واقع جديد

تراث القهر

شكلت أحداث أفريل 1938 في أذهان التونسيين ، الحضريين منهم بالخصوص ، قطيعة شبه كاملة مع الواقع الاستعماري و مؤسساته. و بديهي أنه لم يكن من الممكن الوصول إلى تلك الدّرجة من تعبئة الرأي العام الشعبي في غياب الحزب الجديد الذي أسس لأساليب عمل جديدة بالنسبة للتونسيين.

غير أنه يمكن التأكيد أنّ ما ظهر في أفريل 1938 بصورة جليّة ليس قوّة الحزب و درجة تأطيره ، بل حالة التأهب التي كانت عليها الفئات الشعبيّة و حالة اليأس التي وصل إليها تصوّرها السياسي للتعايش مع سلطة ممزوجة، فهذه الفئات الشعبيّة عبّرت باستمرار ، وإن كان ذلك في صورة لا واعية ، عن صمودها أمام سلطة دخيلة .

لقد مكّننا اطلاعنا على أرشيف الأحكام الجنائية بالمحكمة الابتدائية الفرنسيّة بتونس من تاريخ تأسيسها 1884 إلى سنة 1939[1] ، من الخروج باستنتاجات جديدة في خصوص الموقف الشعبي من نظام الحماية جعلتنا نقرّ بأنّ مفهوم المقاومة لا يجب بحال من الأحوال أن يقتصر على الأساليب العنيفة. إن المقاومة مصطلح مرادف لكلّ حركة مباشرة أو غير مباشرة ، خفيّة أو جليّة ، يمكن أن تبرز رؤية مختلفة تماما عن الرؤية الرّسمية المفروضة . وهكذا فإن المقاومة يمكن أن تتّخذ شكلا ثقافيا ، اجتماعيا ، حالة من القلق أو من عدم الرّضى.

إنّ ملخصات الأحكام الجنائية بالمحكمة الابتدائية الفرنسية بتونس يمكن أن تقدّم لنا معطيات جدّ هامّة، فبإمكاننا ، عبر مئات الدفاتر ، أن نستخرج القضايا التي وضعت تونسيين في مواجهة أوروبيين، في تهم معيّنة، ومهما كان اختيارنا فإنّه قابل للنقد لأنّ هذا العمل يندرج في إطار دراسة ما يسميّه بعض الباحثين بالمقاومة السلبيّة أو المقاومة اللاّواعية ، حيث أن مجهودنا قد تركّز بالفعل على قضايا بسيطة مقارنة بالضربات القويّة للخمسينات، و لكنّها قضايا ذات أهميّة قصوى إذا ما أدرجناها في إطار دراسة

1 المنصر (عدنان): "*مظاهر المقاومة الوطنية الشعبية للإستعمار بمدينة تونس* " شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية ، تونس، 1990.

التاريخ الاجتماعي للمقاومة.

ويمكن تلخيص النتائج التي توصّلنا إليها في المعطيات التالية :

- من ضمن حوالي 3100 قضية استخرجناها من 456 مجلّد نجد أنّ 2110 قضيّة اتهم فيها تونسيون بالاعتداء على الموظفين و أعوان حفظ النظام .

- في الفترة من 1930 إلى 1939 مثّلت قضايا الاعتداء على الموظفين 70,05 ٪ من مجموع قضايا الاعتداء على الموظفين من 1884 إلى 1939.

- هناك350 قضيّة سرقة محاصيل زراعيّة ضدّ أوروبيّين كان المعمّرون الفرنسيون ضحايا في 221 قضيّة منها .

- هناك 74 قضيّة سياسيّة في كامل الفترة ،كان نصيب الثلاثينات منها 90,24٪.

- هناك 48 قضيّة نقابيّة في كامل الفترة، كان نصيب الثلاثينات منها 100٪.

وهكذا يمكن استخلاص أنّ المقاومة الشعبيّة قد توجّهت في آن واحد ضدّ رموز الحضور الأجنبي الاستعماري بالبلاد سواء كان هذا الحضور سلطوياً (أعوان حفظ النظام) ، إداريا (الموظفون) أو استيطانيا (المعمّرون) ، وقد توّج هذا المسار بأحداث أفريل 1938 التي ترمز في نظرنا إلى العودة العنيفة على ساحة الفعل السياسي ، للفئات المهمّشة اقتصاديا و اجتماعيا و ثقافيا ، تحت وطأة الأزمات الاقتصادية المتكرّرة وفاعليّة الدّعاية السياسية للأحزاب الوطنيّة .

التونسيون بإزاء سلطة جديدة

من البديهي أنّ المجتمع التونسي في الفترة الاستعمارية ، كأيّ مجتمع في أيّة فترة من فترات تطوّره ، انقسم إلى فئات مختلفة بحسب الثقافة و الثروة و العلاقات الاجتماعية . ومن هذا المنطلق فإنّه يبدو بديهيّا أيضا أن كلّ فئة قد اختارت لنفسها التصوّر الأقرب إلى معاييرها للدّولة . و على مستوى آخر، يمكن القول أنّ الفئات الحضريّة ، بفعل وقوعها في مواجهة حضور دائم لممثّلي الدّولة و المؤسسات السلطويّة (الثكنات ، مراكز الشرطة، و سائل الاعلام الرّسميّة ...)، كان لها تصوّر مختلف تماما عن تصوّر الفئات الرّيفية للدولة ، حيث تختلف طرق تعامل السلطة مع منظوريها.

وهكذا يمكن التمييز بين مستويين على الأقل داخل التونسيّين أنفسهم ، مستوى ثقافي-اجتماعي، ومستوى جغرافي . وقد سعت الأحزاب الوطنيّة من جهة أخرى إلى صياغة تصوّر جديد للدولة، حاولت نشره داخل فئات عريضة من المجتمع إلى حين توصّلها للتقريب بين تصوّر الحضريّين و تصوّر الرّيفيين للسلطة عن طريق نقل الوعي الاحتجاجي المنظّم من المدن الى الأرياف.

لقد تعامل التونسيون مع أكثر من دولة . فبالإضافة إلى الدولة التقليديّة الحسينية التي حافظت حتى بعد 1881 على جزء كبير من مؤسساتها السابقة، و إن أفرغت من جزء هام من صلاحيّاتها ، تركّزت في ثمانينات القرن التاسع عشر دولة أخرى يصعب التأكيد على أن تصوّر التونسيين لها كان مماثلا لتصوّرهم لمؤسسات الدولة التقليدية .

لقد أصبحت الحياة المدنيّة للتونسيين منذ هذا التاريخ مزدوجة . فهم رعايا للدولة الحسينية نظريا، ولكنّهم واقعون تحت سلطة أقوى منها يمارسها أفراد ذووا مصالح تختلف عن مصالحهم ، و قيم مناقضة في الغالب لقيمهم . وقد كان من النتائج المباشرة لذلك إفراغ الدولة التقليدية من عنصر السيادة على رعاياها الذين اكتسبوا جرأة عليها وقع التعبيرعنها بأشكال متنوّعة من الاستهزاء و التجاهل. وفي مقابل ذلك أصبح حضور المؤسسات الجديدة للمراقبة التي ركّزها الفرنسيّون هو الذي يحدّد موقف التونسي من خلال العلاقات الجديدة التي يحاول صياغتها و المتراوحة بين الخضوع اللاّمشروط و الرّفض المباشر.

غير أنّ انقلابا شبه شامل حصل في هذه العلاقة وفي تصوّر التونسيين لسلطة الدولة منذ اندلاع الحرب العالميّة الثانية و أساسا في الفترة الممتدّة من نوفمبر 1942 إلى ماي 1943 . فقد استرجعت دولة الباي جزءا هامّا من حضورها ، و انتقل رمزها من دور المهمّش إلى دور المنافس الجدّي لسلطة رمز الحضور الفرنسي (المقيم العام) ، و لعلّ أهمّ نتيجة لذلك عودة الثقة في الدولة المحليّة .

ورغم أهمية هذه التحوّلات، فإنّ عناصر الاستمرار لم تكن متوفّرة بالدرجة الكافية لتؤسّس تصوّرا جديدا . فعناصر القوّة التي اكتسبتها الدولة التقليدية في هذه الفترة كانت دخيلة في جزئها الأكبر، إذ وقع استغلال الظروف العالمية في فترة تميّزت بوجود فرنسا ضمن معسكر الخاسرين . كما أنّ الدولة التونسية ظلّت في تصوّر التونسيين تحتلّ المرتبة الثانية من حيث عناصر النفوذ و السيادة، ولكن بعد أن كانت المرتبة الأولى لصالح الدولة الحامية فإنّها أصبحت لقوّات المحور المنتصبة بالبلاد .

و يمكن القول أنّ تفاعل التونسيين مع وجود القوّات المحوريّة كان في جانب هامّ منه تفاعلا مع سياسة الرّايخ الثالث التي اعتبرت مناهضة للامبرياليات التقليدية، و من هنا فقد أخذت الدّعاية للرّايخ الثالث بعدا هامّا في أوساط التونسيين . وهكذا أضيفت دولة ثالثة للدّولتين الموجودتين بالبلاد . وتتمثل أهميّة ذلك في ظهور ثلاث تصوّرات مختلفة للدولة : الدولة الحامية فاقدة النفوذ ، و الدولة الشرعية التقليدية ذات الشعبيّة المتزايدة ، و الدولة "المحرّرة".

ايديولوجيا "القوّة المحرّرة"

لقد وقع التونسيون منذ مطلع الحرب العالمية الثانية و أساسا منذ الصلح الفرنسي- الألماني (1940)، تحت تأثير دعاية محورية مركّزة أصبح التونسيون يشاركون في نشرها ، أو جانب منها على الأقل ، بنفس الأساليب التي وظّفتها الأحزاب السياسية الفاعلة(المنشورات، المظاهرات، الشعارات...الخ).

لقد أصبحت للدعاية، في هذه الفترة، أهمية قصوى بالموازاة مع المجهود الحربي للدول المتصارعة، وهي دعاية شهدت أطوارا عديدة. وسواء كانت ألمانية، إيطالية أو حتى فرنسية فإنها كانت تستهدف بصفة أساسية الرأي العام التونسي بهدف انتاج مواقف جمعية لفائدة أي طرف من هذه الأطراف.

وقد بدأ الصراع السري بين أجهزة الدعاية منذ ما قبل الحرب حيث أكدت بعض التقارير وجود ضباط مخابرات ألمان في الجنوب التونسي منذ 1938. غير أن هزيمة فرنسا وامضائها لمعاهدة 1940 مع ألمانيا هي التي ستفتح البلاد أمام دعاية محورية مركزة وذات أهداف واضحة، وأول هذه الأهداف إعداد الرأي العام التونسي، كجزء من الرأي العام العربي الإسلامي[2]، لتقبل التعاون مع سياسة المحور وذلك بالتأكيد

2 ينبغي في هذا المستوى تأكيد على دور المشارقة وخاصة أمين الحسيني في جلب تعاطف العالم العربي الإسلامي، في المشرق والمغرب، مع سياسة المحور. انظر خاصة بسيس(جوليات): *المتوسط الفاشي، ايطاليا الموسيلينية وتونس*" [بالفرنسية] نشر كارطالا ،1981 ، ص333-334.

BESSIS (Juliette): "*La Méditerranée fasciste, l'Italie mussolinienne et la Tunisie*", Ed. Karthala 1981, p.p. 333-334.

على مناهضة الاستعمار وعدم ابداء أية أطماع استعمارية لألمانيا في البلدان العربية[3].

إنّ النظر في التعبيرات البسيطة لعموم التونسيين تجاه الواقع الجديد تبيّن اتجاها للخلط بين الرّغبة في الاستفادة من الظروف الجديدة للتحرّر، و بين الرّغبة في الانتقام من مظاهر الحاضر الاستعماري.ان هزيمة فرنسا وانهيار نفوذها بتونس قد أيقظت لدى التونسيين الرغبة في الانعتاق، ذلك أن المشهد السياسي التونسي قد شهد تغيرات عميقة وأصبح التحرر هدفا سهل المنال[4] في نظر رأي عام شعبي سريع التعاطف مع كل ما من شأنه الحط من مكانة فرنسا[5].و يظهر هذا الخلط بصفة واضحة في الشعارات الحائطيّة التي برزت في فترة الحرب [6] ، ولعلّ أكثر ما يتكرّر في هذه الشعارات شعار "يحيا هتلر". ورغم هذا الخلط الذي فرضته ، دون شكّ ، محدوديّة الثقافة السياسية و عفويّة التعبير لدى الفئات الشعبية ، فإنّه خلط لا يخلو من منطق داخلي. فهتلر يبقى في نظر التونسي البسيط المحرّر الذي سيسقط الهيمنة الفرنسية، ودلالات ذلك خطيرة ، ذلك أن عقودا عديدة من العمل السياسي الوطني لم ترق في تصوّر التونسيين إلى مرتبة البديل الكامل للوضع الاستعماري[7]، وتتمثّل مرتكزات هذا التصوّر في عدم اقتناع الوعي الشعبي بجدوى عمل الاحزاب [8] فالقوّة العسكريّة هي التي تحدّد المنتصر و المنهزم .

3 بسيس، نفس المرجع.

4 قولدزيقر(أني-ري):الرأي العام التونسي بين 1940 و1944 [بالفرنسية] في "تونس من 1939 الى 1945" أشغال الملتقى الرابع حول تاريخ الحركة الوطنية. برنامج البحث في تاريخ الحركة الوطنية، تونس 1989 ، الصفحات 133-155. ص155.

GOLDZEIGUER (Annie-Rey): L'opinion publique tunisienne 1940-1944, in "*La Tunisie de 1939 à 1945*". Actes du 4ème séminaire sur l'histoire du mouvement national. P.N.R. 1989, p.p. 133-155. p155.

5 كازماجور(ريني): "*الحركة الوطنية بتونس*" [بالفرنسية]، تونس 1948، ص156.

CASEMAJOR (René): L'action nationaliste en Tunisie du Pacte Fondamental de Mhamed Bey à la mort de Moncef Bey 1857-1948., Tunis, La Rapide 1948,p.156.

6 *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 189 ، صندوق: 1864، ملف: أ،ص - ص: 4،5،7،8،2،8.

7 خاصة اذا كان هذا الخلط صادرا عن أحد القادة التاريخيين للحركة الوطنية: "كان تعاطفي مع الألمان صادرا عن كونهم الأعداء الأزليون لسادتنا الفرنسيين". بن سليمان (سليمان) : " مذكرات سياسية " [بالفرنسية]،سراس للنشر، تونس 1989 ، الصفحات 157، 158، 159.

BEN SLIMAN (Sliman): "*Souvenirs politiques*", Cérès Productions, Tunis 1989, p157, 158, 159.

8 شهادة القائد محمّد جليلة (المكناسي بتاريخ 1992/11/24)، إنجاز وحدة التاريخ الشفوي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

ويؤدي ذلك إلى تأكيد أنّ الحزب الدستوري الجديد الذي أسس لأساليب عمل سياسيّة فعّالة على مستوى التأطير و الدعاية و غزو الأرياف، لم يصل إلى النقطة القصوى. ويعود ذلك إلى ايديولوجيا القادة نفسها ، التي لم تصل إلى الجذريّة المطلوبة من الوعي الشعبي الكامن ، و إلى التجربة القاسية التي مرّ بها التونسيون في أفريل 1938 .

يمكن أن نستنتج ذلك من كثير من الشهادات الشفوية خاصة في الأوساط الشعبية والريفية التي لم تكن قادرة، بفعل محدودية ثقافتها السياسية، على استيعاب أساليب العمل السياسي العصري التي مارسها الحزب الدستوري الجديد. لذلك فقد ظلت ترفع باستمرار شعار الاستقلال عن فرنسا واخراج الفرنسيين من البلاد، وهو شعار لم يرفع من قبل القادة الوطنيين إلى حد هذه الفترة. ويؤدي ذلك الى طرح مسألة ازدواجية الخطاب السياسي الوطني. فشعار الاستقلال كان موجها بالأساس للاستهلاك الداخلي، لضمان الأنصار والمحافظة على نسق مرتفع من الحماس لديهم، لكنه خطاب يتغير تماما في مواجهة الفرنسيين ليصبح داعيا الى التعاون والعودة الى روح معاهدة الحماية.

ولا تخرج المنشورات الصادرة عن القيادة السرية للحزب الدستوري الجديد حتى سنة 1940 عن هذا الاطار العام. ذلك أنّ المضامين التي احتوت عليها لا تقطع تماما مع الفترة السابقة وإن شهدت بعض التغيّر. وأهم هذه المضامين الدعوة لأهلية التونسي لتقرير مصيره وضرورة الحفاظ على الذاتية التونسية وتأكيد استعداد الشعب للتضحية من أجل قضيته الوطنية وخاصة إطلاق سراح القادة المعتقلين. كل ذلك في إطار الاستفادة من الظروف العالمية الجديدة ومن انكسار فرنسا. ولكن هذه المنشورات لم توضح طريقة هذه "الاستفادة"، محافظة بذلك على نوع من الغموض القابل للتأويل[9].

لقد نجح الحزب الحرّ الدّستوري الجديد ، بالاستفادة من الأزمات الاقتصادية أساسا ، في إحداث استفاقة في وعي الفئات الرّيفيّة التي اقترب تصوّرها للدولة الدّخيلة من تصوّر الفئات الحضريّة، و ذلك تحت تأثير أساليب الاتصال المباشر ، غير أنّ دخول عوامل جديدة و قويّة إلى الساحة المحليّة، كان من

9 *تاريخ الحركة الوطنية*، وثائق الجزء 8 [بالفرنسية]، مركز التوثيق القومي، ص - ص142 - 157.
Histoire du Mouvement National Tunisien, Documents VIII, p.p. 142-157.

نتائجه طغيان الوعي الوطني على الوعي الحزبي ، حيث كان التصوّر الكامن للدولة الاستعماريّة ، باعتبارها دولة دخيلة و ظالمة ، أقوى من السياسة الحزبيّة الحذرة (تجاه القوى المتصارعة) ، ممّا جعل التونسيّين يسلكون "سياسة محوريّة " رغبة منهم في الإجهاز على سلطة منهزمة.ومن هذا المنطلق فإنّ التقارير الفرنسية الرّسمية لا تبدو مبالغة عندما تذكر أنّه في بداية 1943 ، كان 95٪ من التونسيين معادين لفرنسا [10] ، بما أنّ معظم الشهادات الشفويّة تؤكد ذلك ، حيث تصل إحداها إلى القول بأنّ الذين كانوا غير مساندين للألمان في هذه الفترة لم يكن عددهم يتجاوز في كامل المملكة ، الخمسين شخصا [11].

في هذا المستوى ينبغي الفصل بين موقفين داخل التونسيين، ذلك أن موقف قادة الحركة الوطنية قد تميز عموما ، ما عدا بعض الاستثناءات، بالرغبة في ربح الوقت حتى يتبين الاتجاه النهائي للأحداث، وهو موقف أحسن التعبير عنه معظم القادة التاريخيين المعتقلين في السجون الفرنسية. ويستند هذا الموقف إلى ثقافة سياسية تشبعت بالمبادئ الانسانية للثورة الفرنسية، تلك المبادئ الرافضة للدكتاتورية المؤمنة بالانسان كقيمة في ذاته.هذه النظرة نجدها لدى محمود الماطري الذي يؤكد في مذكراته على المحنة التي عاشها الفرنسيون في هذه الفترة مما جلب لهم تعاطف معظم التونسيين الذين تغاضوا عن الماضي![12] وفي المقابل فلم يكن بإمكان معظم التونسيين النظر إلى فرنسا من هذه الزاوية. فهي في تصورهم مرادف للنهب، لجبروت المعمرين وظلم الادارة[13].وقد وجد هذا التصور طريق الانتشار بفعل غياب التأطير

10 *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 184 ، ص: 266 . تقرير حول الوضع السياسي بتونس بتاريخ 1 فيفري 1946 . أنظر أيضا التقرير الخاص بفترة جانفي- فيفري 1946: نفس المصدر ، ص: 265.

11 شهادة الطيّب بن بلقاسم بتاريخ 14 أفريل 1993 . إنجاز وحدة التاريخ الشفوي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية (الشريط الثاني ، الوجه الثاني) . أنظر أيضا شهادة محمد علي الساكري (المكناسي بتاريخ 1992/11/2)، وجميع الشهادات المتعلقة بهذه الفترة و المجمّعة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية . و بالرغم من مسحة المبالغة التي تبدو من خلالها ، فإن هذه الشهادات يمكن أن تقرّبنا من التصوّر السياسي الشعبي السائد في هذه الفترة.

12 الماطري(محمود): "*مسيرة مناضل: 1926-1942*"، [بالفرنسية]. سراس للنشر، تونس 1992. ص179.

ELMATERI (M): *Itinéraire d'un militant(1926-1942)* Cérès Productions ,1992, p179.

13 كريم (مصطفى): "مساهمة في دراسة الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالمية الثانية"[بالفرنسية]، في *المجلة التاريخية المغربية*، عدد10-11، جانفي 1978، ص.ص. 25-66.

KRAIEM (M): Contribution à l'étude de l'histoire du mouvement national tunisien pendant la seconde Guerre Mondiale.*R.H.M.* N10-11, janvier 1978 , p.p. 25-66.

السياسي للجماهير وانتشار الدعاية المحوّرة.لقد احتلت الجماهير الشارع ولم يكن هؤلاء بالضرورة من الدستوريين بل من الثائرين[14] .

إنّ الدّعاية للقوّة "المحرّرة" تأخذ أبعاداً أكثر وضوحا إذا تتبّعنا الخطاب الشعبي في هذه الفترة. ففي 25 فيفري 1943, و أثناء مراسم تشييع جنازة أحد الجنود الألمان بمقبرة نابل ، وفي حضور جمهور غفير من التونسيين ، ألقى أحد التونسيين الذي يقدّمه لنا تقرير الجندرمة على أنّه دستوري متحمّس يشتغل في التجارة ، خطابا جاء فيه : "*يجب على كلّ المسلمين أن يتّحدوا حول الألمان . فألمانيا هي الأمة الوحيدة التي تحب الإسلام . ذلك أن هتلر قد أرسل جنوده إلى تونس لتخليصنا من بؤسنا و الدفاع عن حقوقنا و مصالحنا التي افتكّت منّا . إنّنا نشكر ألمانيا و نعترف لها بهذا الجميل . ونحن نأمل و نعتقد دائما في الانتصار الألماني الذي سيكون انتصارا لنا أيضا . لقد ولّت الأيام البائسة بفضل ألمانيا و يجب أن نساعد هذه الأمة أكثر من أي وقت مضى*" [15].

وقد كرّرت نفس المعاني في اليوم الموالي أثناء تشييع جنازة أحد الجنود الإيطاليين، من قبل أربعة خطباء من ضمنهم رئيس الشعبة الدستورية و آخر كان عمّه قائدا بصفاقس [16]. وكان وفد من أعيان نابل اتصل بالقيادة الألمانية بالمدينة يوم 2 فيفري 1943 لطلب بسط الحماية الألمانية على التونسيين [17].

إنّ ذكر الحزب غائب تماما من هذا الخطاب رغم أنّ الناطقين به يقدّمون لنا على أنّهم دستوريون، و دلالات ذلك خطيرة أيضا . فالوعي الدستوري قد انكفأ بدرجة كبيرة وأصبح الواقع لا يعترف ، في نظر عامّة التونسيّين ، إلاّ بوجود منتصر واحد و منهزم واحد، فمفهوم التحرّر يبدو مرتبطا أكثر من أي وقت مضى بالمجهود الألماني الذي أصبح يحتكر في التصوّر الشعبي ، تحقيق الطموحات الوطنية للتونسيين ، في حين يمكن فهم مساعي أعيان نابل ، برغم الحذر الذي يحدونا بإزاء المصادر، أنّ البديل للسلطة الفرنسيّة ليس التحرّر الوطني ، بل الحلّ الالماني.

14 بن سليمان (سليمان) : " مذكرات سياسية " مصدر سابق ; ص 185 .

15 تقرير جندرمة نابل بتاريخ 7 مارس 1943، *وثائق الإقامة العامّة* ،بكرة :189، صندوق :1864 ، و :236.

16 نفس المصدر.

17 تقرير الجندرمة بتاريخ 3 فيفري 1943، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة: 184، و:165.

وهكذا فقد نمت ايديولوجيا "القوّة المحرّرة" لدى التونسيين ، إلى درجة أنها أصبحت تختزل كلّ التعبيرات الشعبيّة عن الواقع الوطني ، وهو ما يعبّر عن محدوديّة البدائل التي طرحتها الى حدّ هذه الفترة، الإيديولوجيا الدستورية . بل على العكس من ذلك، سوف نرى أن الدستوريين (القاعدين في الغالب) سوف ينسجمون مع هذه التصوّرات الجديدة في اطار ما أسميناه " الحركات التحرّرية المحليّة" .

II - انهيار نفوذ و بروز آخر

الحركات التحرّرية المحليّة

لا يمكن التعرض إلى هذه الظاهرة بمعزل عن الظروف الخاصة التي أنتجتها ، وأهم هذه الظروف الانهزام الفرنسي(1940) واحتلال القوات المحورية للبلاد التونسية. ويعيدنا ذلك إلى مسألة الدعاية المحورية التي شهدت تطورا كبيرا في هذه الفترة على مستوى الوسائل والأهداف. فمن جهة أولى وبالاضافة إلى الراديو كأداة سريعة التأثير في وسط شفوي[18] انتشرت المطبوعات وأصبح بعض الألمان يخاطبون الجماهير التونسية بصفة مباشرة أثناء التجمعات الشعبية رافعين الشعارات المعادية للفرنسيين والحلفاء واليهود ومؤكدين على الصداقة الألمانية الاسلامية.أما في مستوى الأهداف فقد أصبحت الدعاية المحورية ترمي ليس فقط إلى اضعاف السلطات الفرنسية بل ايضا إلى دفع التونسيين نحو تعاون أكبر مع قوات المحور سواء عن طريق تقديم اليد العاملة الضرورية أو عن طريق الانضمام للجيش الألماني.

18 آجرون (شارل روبير): أهالي المغرب ازاء الدعاية الألمانية [بالفرنسية]، *مجلة تاريخ الحرب العالمية الثانية*، عدد 114، أفريل 1979 .ص14.

AGERON (Charles-Robert): "Les populations du Maghreb face à la propagande Allemande",*Revue d'Histoire de la Deuxième Guerre Mondiale*, N. 114, Avril 1979 , p.p.1-39, page 14.

وهو تقريبا اعادة للمقال الذي نشره في العدد 7-8 من *المجلة التاريخية المغربية*.

AGERON (Charles-Robert): Contribution à l'étude de la propagande Allemande, R.H.M , N.7-8, 1977.

إنّ تقاريرا فرنسية كثيرة تشير إلى انضمام تونسيين إلى الجيش الألماني أثناء وجود قوّات المحور بتونس لكننا لا نجد في هذه التقارير احصائيات دقيقة . أماالمصادر الشفوية فتذكر بعضها أرقاما مرتفعة لا يمكن التأكد منها [19] . وبالنسبة الى هذه الظاهرة ينبغي في نظرنا الفصل بين فترتين على الأقل، فترة أولى بدأت منذ دخول القوات المحورية بلغ فيها تعاطف التونسيين مع الألمان أقصاه، وهي فترة تواصلت إلى حدود قدوم القادة المعتقلين الذين شرعوا في حملة مناهضة وداعية إلى مزيد من الحذر.وهنا تبدأ مرحلة ثانية تميزت بتراجع تعاطف التونسيين مع المحور خاصة مع تواصل غموض الموقف الألماني من مستقبل القضية التونسية وتوضح المطامع الايطالية[20]. وهنا ظهرت الحدود الواقعية [21] لهذا التعاطف حيث من خلال رفض عمليات التسخير والتجنيد[22].

إنّ المقصود بالحركات التحرّرية المحليّة هي تلك المحاولات التي برزت في بعض المناطق من البلاد للتخلّص من ممثّلي السلطة الفرنسية ، و نحن ندرسها هنا على أساس أنّها حركات شعبيّة لم تخضع لتأطير سياسي واضح وان أمكن ملاحظة الدور الرائد في هذه الأحداث لبعض الدستوريين المحليين .

19 شهادتا الطيب بن بلقاسم و محمد على السائري ، مصدران سابقان . أنظر أيضا شهادة الكومندان بايزنار ، وهو ضابط مخابرات ألماني نشط بتونس أثناء هذه الفترة وقد أكّد أن عدد التونسيين الذين أبدوا رغبتهم في الالتحاق بالجيش الألماني بلغ إثني عشر ألفا. (إنجاز وحدة التاريخ الشفوي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية)

20 انظر :

آجرون:أهالي المغرب...مرجع مذكور.

بسيس:المتوسط...مرجع مذكور.

21 آجرون:أهالي المغرب...مرجع مذكور. ص 13

22 الشريف(محمد الهادي):"الحركة الوطنية والاحتلال الألماني الايطالي لتونس(نوفمبر 1942-ماي 1943)، [بالفرنسية] في"*تونس من1939 الى 1945*" أشغال الملتقى الرابع حول تاريخ الحركة الوطنية. برنامج البحث في تاريخ الحركة الوطنية، تونس 1989 ، الصفحات 157-169. ص165.

CHERIF (Mohamed-Hedi): Mouvement National et occupation Germano-Italienne de la Tunisie (Nov.1942-Mai 1943), in "*La Tunisie de 1939 à 1945*". Actes du 4ème séminaire sur l'histoire du mouvement national, P.N.R, 1989, p.p. 157-169. p165.

وقد شهدت بلدة دقاش أوّل هذه الأحداث منذ أواخر سنة 1940 ، حيث استغل بعض الدستوريين إبرام الصّلح الفرنسي - الألماني وحالة الوهن التي أصبحت تبدو عليها السلطات الفرنسية بتونس، للتنظم من جديد. و أمام اعتقال السلطات المحلية لهم، حصلت أحداث عنيفة قتل على إثرها أحد عناصر الجندرمة وهوجمت فيها أملاك أحد أعيان البلدة . و أثناء هذه الأحداث أعلن في شوارع دقاش أنه بانهزام فرنسا أصبحت تونس مستقلّة وتحت حماية هتلر [23].

ويمكن التأكيد أنّ هذه الأحداث ، رغم مشاركة دستوريين فيها [24] لم تكن مملاة من قبل قيادة الحزب الذى كان يشهد صعوبات كبيرة بعد محنة أفريل 1938 . ولكن يمكن التأكيد أيضا أنّ هذه الأحداث لم تكن عفوية مطلقا، فقد خضع منظّموها و المشاركون فيهاإلى منطق معيّن في التعامل مع واقعهم المحلّي حيث عملوا في نفس الوقت على إعلان استقلالهم عن فرنسا، و على منع الجندرمة بالقوّة من تنفيذ الإيقافات و أيضا على القيام بتصفية مصالح المتعاملين مع السلطات الاستعمارية من الأعيان المحلّيين ممثلين في بلقاسم بن بوبكّر الذي كان يشغل في نفس الوقت مهامّ عضوية مجلس الجهة الخامسة ، وعضويّة الحجرة التجارية و الفلاحية المختلطة بالجنوب وعضوية كلّ من لجنة حماية سوق التمور و لجنة حماية الزياتين ، بالاضافة إلى تحصّله على نيشان الافتخار ووسام الاستحقاق الفلاحي [25].

كما انتشرت الاضطرابات إثر ذلك بكلّ من توزر ونفطة، حيث صدرت أحكام في حق 27 شخصا بتهمة التظاهر و الاعتداء على أعوان الأمن [26] . ويمكن للمنشور الذي علّق على جدران بلديّة توزر في بداية فيفري 1941 أن يضيء أبعادا أخرى من هذه المسألة :

"لتسقط فرنسا المحتلة"

"لتحيا تونس الوطنية"

"كفاك فرنسا ما أنت فيه من الدهشة والحرج والحيرة بعد القوة والحمية"

23 *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 189 ,صندوق : 1864، ملف: 2، ص: 125 .

24 مثل موسى الرويسي. لمزيد الإطلاع على هذه المسألة ، أنظر شهادته بوحدة التاريخ الشفوي بالمعهدالأعلى لتاريخ الحركة الوطنية .

25 *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 189، صندوق : 1864 ، ملف: 2، ص.

26 نفس المصدر، ص-ص 153-154.

"لم تضعي اعتبارا للآخرين"

"كفاك تعاليا (...)"

"كم من نفوس أهيئ أمامك و كم من رجال استجابوا لندائك "

"السنغاليون الذين أرسلت بهم إلى الجريد لم يكونوا كافين (...)"

"تحمّلي العبوديّة و القهر و تأملي منظوريك الذين لم يكونوا رعاياك"

"لقد شرّفتك تونس في كلّ ما لديك من مقدّسات "

"لقد حقّقت تونس تقدّما في العلوم و الآداب و بدأ نجمها يلمع في الأفق ، لقد تجاوزك".

"تحيا تونس"

"يحيا الزعيم الحبيب بورقيبة"

"لتسقط فرنسا"

"تحيا توزر" [27]

رغم أنّ هذا المنشور ليس بالضرورة من عمل المشاركين في أحداث دقاش، فباستطاعتنا أن نعتبره يدلّ إلى حدّ معيّن على تصوّر الوعي المحلّي لهذه الظاهرة ، وهو وعي لا يبدو بعيدا جدّا عن المضامين التي نشرتها الدعاية الدستورية و الوطنيّة عموما (تأكيد أهليّة التونسي للإشراف على شؤونه بنفسه)، حيث أن أحداث دقاش تندرج في نظر مؤلّفي المنشور في إطار أشمل وهو التحرّر الوطني .

وقد تكرّر نفس المسار تقريبا في أحداث قصور الساف (ربيع 1943) حيث نرى أنّ الاضطرابات التي شهدتها البلدة قد عرفت مشاركة أعداد هامّة من التونسيين بقيادة عنصر من الشعبة الدستورية (ابن نجمة)، و قائد الهلال الأحمر بقصور الساف وهو ضابط سابق بالجيش الفرنسي (عبد السلام القصيبي).

وقد استفاد أهالي البلدة من حالة الفراغ السياسي بقصور الساف (فمنذ 1 فيفري 1943 لم يكن هناك قايد بالمهدية ، و ابتداء من 1 مارس لم يعد هناك خليفة بقصور الساف) ومن إطلاق سراح بعض

27 نفس المصدر ، صفحة 140-141.

نزلاء سجن سوسة الذين ساندوا التحرك، و تمكّن المهاجمون من احتلال مركز الشرطة (الليلة الفاصلة بين 20 و 21 مارس 1943) و من حجز أسلحة الأعوان التي سلّمت إلى القوّات العسكرية الإيطالية بالمنطقة [28]. وسقط في هذه الأحداث 6 قتلى من المهاجمين و أحد رجال الشرطة التونسيين [29]. غير أنّ هذه البلدة ضمنت إثر هذه العملية، انسحاب كل عناصر النفوذ الفرنسي إذ جاء في أحد التقارير توصية من المراقب المدني بالمهدية للجندرمة و الشرطة بعدم التوجّه إلى قصور الساف طالما أن الخواطر لم تهدأ بعد[30] في حين كان أهالي البلدة قد عزموا على عدم السماح لأيّ فرنسي بأن يطأ قصور الساف[31]. وفي هذه الأثناء تميّز موقف القوّات الألمانية و الإيطالية بنوع من الحياد المتواطىء مع التونسيين، حيث عملت على حماية قائد العملية (عبد السلام القصيبي) بنقله إلى تونس في اليوم ذاته [32].

ومن خلال أحداث قصور الساف يبدو ذلك الاستعداد لتوظيف كلّ الإمكانيات من أجل تحقيق التحرّر (الهلال الاحمر ، الشبيبة الدستورية ، التأطير الحزبي) ولكن دون أن يعني ذلك أن العملية من مسؤولية الحزب أو بقيّة الهياكل الوطنية ، فهي عمليّة محليّة و لكنّها منظمة و مؤطرة و أشرف عليها محترفون (عبد السلام القصيبي الذي كان المسؤول المحلّي عن الشبيبة الدستورية و عن الهلال الاحمر و الذي سوف يعترضنا ذكره في الاعداد للثورة المسلّحة في بداية الخمسينات [33]).

ولم ينه الانسحاب الألماني -الايطالي من تونس هذه المحاولات بل إنّنا نلاحظ ، على العكس من ذلك ، أنّها اتخذت في بعض الأحيان شكلا متطوّرا بدخول عسكريّين محترفين إلى حركة التحرّر المحليّة ، و تمثّل ذلك خاصة في ثورة المرازيق و إن كانت أحداث رأس الجبل لا تقل عنها أهميّة [34].

28 تقرير جندرمة المهدية بتاريخ 1943/3/21 . *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة : 189، ص :258 .

29 تقرير جندرمة المهدية بتاريخ 1943/3/24، بكرة: 189 ، ص: 257.

30 تقرير جندرمة المهدية بتاريخ 31 مارس 1943 ، نفس المصدر: ص: 255.

31 نفس المصدر.

32 نفس المصدر ، ص: 255.

33 شهادة الطيّب بن بلقاسم، مصدر سابق .

34 أنظر معطيات حول أحداث رأس الجبل ، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة 178 ، ص- ص 334 - 339.

وخلال هذه الأحداث انتقل العسكريون التونسيون في الجيش الفرنسي من دور المساعد و الحليف إلى دور الثائر و المحتج. و خلال هذه الأحداث أيضا توجّه الثائرون (خاصة المرازيق) إلى التخلّص من الموالين للسلطات الفرنسية سواء عن طريق الأسر أو إتلاف الأملاك. غير أنّ تورّط المرازيق في حرب شبه نظاميّة ،إضافة إلى انعدام التأطير السياسي، أفقدهم المبادرة.

من المؤكد أنّ عمليات التحرّر المحلي ، و إن كانت نابعة من الظروف الميدانية للبلاد التونسية في أثناء الأشهر الستّة التي استغرقها الحضور المحورى ، استندت إلى ايديولوجيا تحرّرية وطنية ساهمت في ترسيخها الأحزاب .غير أنّ هذه الأحزاب فقدت السيطرة على أولئك الذين اعتقدوا في ضرورة استغلال الواقع الجديد للتحرّر ، و مع فقدان هذه السيطرة لم يكن من الممكن بالنسبة للثائرين أن يوحّدوا مجهوداتهم ممّا أدّى إلى انتفا ما خاضعة لرؤى محلّية تعوزها عوامل الاستمرار.

صياغة البدائل :

لقد استغلّ التونسيون ظروف الحرب لتحقيق التحرّر . وقد تمّ ذلك في أحيان عديدة بطريقة عفويّة إذا استثنينا حركات التحرّر المحلّية المنظمة التي تعرّضنا إليها في العنصر السابق. وفي الحقيقة إنّ رفض الاحتكام للسلطة الفرنسية و الاعتداء على ضيعات المعمّرين و محاولة تأسيس سلطات محلّية تشرف على شؤون السكان، تحمل كثيرا من الدّلالات على عمق الاحساس بالقهر و محاولة صياغة بدائل عن كلّ أشكال الحضور الاستعماري الجليّة و البارزة باستمرار في حياة التونسيين ، حيث أدّت فترة الأشهر الستّة إلى يقظة الشعور بالذات ، و الرغبة الجامحة في تأكيدها . وقد يكون ذلك في جوهره ردّة فعل غريزيّة على ضغف السلطة القهريّة الدّخيلة ، غير أنّه لا يمكن تأكيد عدم حضور الايديولجيا التحرّرية بسهولة.

ففي مقدّمة تقرير لجندرمة قليبية بتاريخ 12 فيفري 1943 نقرأ : "*منذ مدّة معينة تغيّرت الحالة الذهنية لسكان المنطقة المسلمين . إن التونسيين الذين تعوّدوا في السابق على احترام القانون أضحوا*

يتجاهلونه إراديا"[35] . وتمثلت ظاهرة تجاهل القانون في مهاجمة ضيعات المعمّرين الفرنسيين ، ووصل الأمر ببعض التونسيين إلى إعلان ملكيتهم لأجزاء من هذه الضيعات [36] وفي أحيان عديدة أخرى كان تدخّل السلطات الفرنسية يتسبّب في مظاهرات عنيفة . ففي 8 فيفري 1943 أدّت محاولة بعض أعوان الجندرمة تنظيم طابور الحرفاء في إحدى نقاط التموين بماطر إلى مهاجمته من قبل 600 شخص ولم ينقذه من الموت إلاّ تدخّل الجنود الالمان [37] . وفي المكنين تطوّرت محاولة التحقيق مع جزّار في شأن مخالفة اقتصادية إلى مظاهرة عنيفة منعت الجندرمة من القيام بدورها [38] وفي سيدي ثابت اندلعت معركة بين السكان و أربعة أعوان جندرمة استعملت فيها الأسلحة بسبب محاولة القبض على أحد المتهمين [39] .

لقد لخّص أحد تقارير الشرطة هذه الوضعيّة معتبرا أنها مهدّدة للوجود الفرنسي حيث جاء في هذا التقرير :" لقد أصبح مستحيلا على السلطات المحلية أن تتحصل على معلومات مضبوطة و مفصّلة حول الاجتماعات الدستورية . ذلك أن الوشاة توقفوا عن إسداء هذه الخدمات خشية الانتقام. إنّ الأهميّة التي أصبحت للحزب الدستوري و نشاطه المفاجيء أصبحا يخيفان الناس الذين يتساءلون إن لم يكن من الأحسن لهم أن يتجاهلوا كل ما يحدث حولهم خوفا من المتاعب . و لهذه الاسباب فإنّ الشرطة و الجندرمة تفقدان بعض الأصدقاء الأوفياء الذين لم يكن همّهم في السابق سوى الرّغبة الذاتية في مدّ السلطات بالمعلومات "[40] .

35 *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة: 189 ، ص :225 .

36 تقرير جندرمة قربة بتاريخ 19 فيفري 1943. بكرة 184 ، ص: 184.

37 تقرير جندرمة ماطر بتاريخ 1943/02/09, *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 184،ص: 163.

38 تقرير جندرمة المكنين بتاريخ 2 مارس 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة 184، ص-ص: 192-193.

39 تقرير الجندرمة بتاريخ 8 مارس 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 184 ، ص: 193.

40 تقرير شرطة الكنين حول الوضع في جمّال بتاريخ 6 مارس 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة :189.ص:235 .

وفي الحقيقة فإنّ النقطة التي يؤكدها هذا التقرير تندرج في سياق تحوّل نفسي شمل معظم التونسيين و من ضمنهم المرتبطة مصالحهم بالسيادة الفرنسية . حيث نرى أنّ شيخي قربة وتازركة أصبحا الرّئيسين الشرفيّين للشعبتين الدستوريين [41] في حين أجبر قائد المنستير شيخ بنان على الاستقالة لتعاونه مع الجندرمة [42]. كما يشير أحد تقارير الشرطة الى تهاون شيخي قصر هلال في مساعدة السلطات في القاء القبض على المورطين في أحداث عنف استهدفت الجندرمة [43] وبالموازاة مع ذلك تدعّمت سمعة الباي الذي أصبح يحكم في الخلافات بين التونسيين و الفرنسيين ، حيث نقرأ في عريضة رفعها إليه سكان قابس و أمضاها 355 شخصا احتجاجات حادّة على إدارة الفرنسيين للتموين و للحماية من أخطار القصف [44].

ان انسياق بعض الأعيان المحليين في ظاهرة التمرد على السلطات الفرنسية، وهو ما نجد له بعض الصدى في التقارير الفرنسية، ينبع في نظرنا من سوء تقدير هؤلاء لطبيعة ميزان القوى في هذه الفترة التاريخية الحرجة وسعيهم الى بناء علاقات جديدة تقوم، كما هو معتاد، على المصالح. وهذا نجاح لا يمكن أن ننكره للدعاية المحورية التي ظلت تنشر فكرة الانتصار رغم أن مسار الأحداث يؤكد العكس تماما. لقد حاول الأعيان المحليون اذا تغيير مواقعهم بتبني السلوك العام ووجدوا في تردد القادة الوطنيين فرصة حاولوا استغلالها لصالحهم [45]. وستدفع هذه الفئة غاليا ثمن شكها في" قدرة فرنسا على النهوض" مثل القايد أحمد الزاوش والقايد على بن ضياف وستّة عشر شيخا والخليفة عبد الحميد بن خود والخليفة منصور بن سليمان خليفة جبنيانة الذي اتهمته السلطات الفرنسية بتزعم مسيرة في جبنيانة حمل خلالها

41 تقرير الجندرمة بتاريخ 4 جانفي 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 189 ، ص: 210 . أنظر أيضا التقرير حول نشاط الحزب الدستوري أثناء الإحتلال الألماني ، *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة: 189 ،ملف رقم 3،ص:287.

42 *وثائق الإقامة العامّة*، بكرة 184،ص: 208 .

43 تقرير بتاريخ 25 جويلية1940 في تاريخ الحركة الوطنية، وثائق الجزء8 مصدر مذكور، مركز التوثيق القومي، اص-ص 167 إلى 173.

44 عريضة بتاريخ شهر مارس1943، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة: 189 ، ص: 319.

45 نجد صدى لهذا التردد في تقييم أبرز قادة الحركة الوطنية لأحداث هذه الفترة وخاصة أحداث الساحل. فقد استخلص الحبيب ثامر أن أحداث قصور الساف من صنع جماهير "عرفت منذ القديم بروح التمرد على كل سلطة" وهو ما لا يتعارض كثيرا مع تقييم السلطات الفرنسية لذات الأحداث. انظر بسيس، المتوسط...، مرجع مذكور، ص356.

الراية الألمانية[46].

ومن ناحية أخرى فقد استخدم التونسيون بعض الأطر المدنيّة المحدثة لتحقيق مبدإ الإدارة المحليّة ، حيث رأينا في مثال قصور الساف الدّور الذي لعبته كل من "الشبيبة الدستورية" و "الهلال الأحمر"[47]، فقد كوّن التونسيون نوعا من الشرطة المحليّة ضمّت أربعين عنصرا يحملون شعار "الهلال الأحمر" ويشرفون على كل المسائل العامّة بما فيها التموين و كان بإمكانهم فضّ المشاكل بين التونسيين و إحالة بعضها للعدالة [48].وحدثت نفس الممارسات بالمحرس حيث أشرفت هذه العناصر على طوابير التموين و ضبطت المخالفات الاقتصادية [49]، و كانت حسبما تذكره التقارير الرّسميّة و الأمنية مرادفة لتأسيس شعب دستورية جديـــــدة [50].

أما في أريانة فقد تكوّنت مجموعة من التونسيين "خلقت مشاكل عديدة للسلطات البلديّة والأمنيّة و أرهبت الأهالي مدعيّة تحت قيادة أحد الرّعاة أحقيّتها في الإشراف الإداري على المدينة ومعاقبة كلّ المعارضين لنشاطها[51].وأثناء كل حادث مع ممثّل للسلطة الفرنسية كان التونسيون يصرّحون

46 انظر علية الصغير (عميرة): مشاكل التصفية بين فرنسيي تونس بين 1943 و 1945 " [بالفرنسية]، "*تحية تقدير للأستاذ شارل روبير آجرون*"، الجزء الأول، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، جوان 1996. ص.ص.53-63، 58 .

ALEYA SGHAIER (AMIRA): Les problèmes de l'épuration parmi les Français de Tunisie entre 1943 et 1945, *Mélanges Charles-Robert AGERON*, Tome 1, Publications de la F.T.E.R.S.I., Zaghouan 1996, p.p. 53-63, Page 58.

47 ينبغي التعامل مع هذه التقارير بكثير من الحذر حيث عملت الأوساط الفرنسية على تهويل هذه الظاهرة. لمزيد المعطيات حول دور حركات الشباب في هذه الفترة انظر بلعيد، الحبيب : "لمحة حول حركات الشبيبة التونسيّة خلال الحرب العالمية الثانية. التجمعّات والنشاط"، في "*تونس بين 1939 و 1945*" ، أشغال الملتقى الرّابع حول تاريخ الحركة الوطنية (جوان 1987) . تونس 1989 . ص.ص. 311-336

BELAID (H) : "Aperçu sur les mouvements de jeunnesse tunisienne pendant la Deuxième Guerre mondiale.Groupements et action", in "*La Tunisie de 1939 à 1945*".Actes du 4è. Séminaire sur l'Histoire du Mouvement National (Juin 1987). Tunis 1989. p.p.311-336.

48 تقرير الجندرمة بتاريخ 25 مارس 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة :189 ، ص : 219 .

49 تقرير الجندرمة بتاريخ 25 مارس 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة : 184 ، ص: 205.

50 المصدران السابقان.

51 تقرير أمني بتاريخ 19 فيفري 1943 ، *وثائق الإقامة العامّة* ، بكرة: 184، ص: 115.

أنّ فرنسا لم تعد موجودة ، فالتونسيون أصبحوا أحرارا بالكامل لا يعترفون بالموظفين الفرنسيين[52] .

إنّ تأسيس لجان تونسية على رأس الإدارات الرسميّة بمساعدة الألمان اجراء كانت له تأثيرات إيجابيّة في أوساط التونسيين الذين اعتقدوا أنّ هذه المرحلة أساسية قبل الادارة الكاملة لشؤونهم[53] ، وفي نفس الوقت حاولوا تدعيم هذا الاتجاه على المستوى المحلّي بانتزاع النفوذ من الإدارة الفرنسية .

لقد أدّت هذه التجربة إلى اقتناع الفرنسيين "بأن التونسيين يبقون رغم كلّ شيء أعداء الرّومي . إنّ تصرّفاتهم طوال فترة الاحتلال (المحوري) قد حطّمت الكثير من التهيّؤات التي انتشرت بعد 1940 والتي كان مضمونها أن التونسي سيبقى متعلّقا بفرنسا رغم هزيمتها. وهذا مناقض للحقيقة (...) ولن تستطيع فرنسا بغير الانتصار و إبراز قوّتها أن تحقق في افريقيا الشمالية المهمّة التي وضعتها على عاتقها[54]".

وبالفعل، فقد كان دخول قوات الحلفاء المنتصرة إلى تونس نكبة حقيقية لمعظم التونسيين الذين سوف يتحملون قسوة الانتقام الفرنسي، وما كان الفرنسيون يسمونه "تحريرا" لم يكن يعني في نظر التونسيين سوى العودة الى الوضع القديم المدعم بالقمع[55].لذلك لم ترحب بجيوش الحلفاء عند دخولها إلى مدينة تونس سوى الجالية الفرنسية واليهودية[56] .

ويمكن تفسير شدة القمع المسلط على التونسيين في الفترة التي تلت احتلال الحلفاء للبلاد التونسية برغبة السلطات الفرنسية في إزالة ما علق في أذهان التونسيين من أوهام التحرر وإعادة صورة فرنسا مثلما كانت قبل هزيمة 1940، وهو قمع، وإن كان لا يوازي أحيانا طبيعة الجرائم المقترفة، فقد نظرت اليه

52 تقارير أمنيّة ، *وثائق الإقامّة العامّة* ، بكرة: 184 ، ص:81و 85 ، بكرة: 189 ، ص: 244 وما يليها

53 *وثائق الإقامّة العامّة* ، بكرة : 184 ، ص: 10.

54 *وثائق الإقامة العامّة* ، تقارير حول نشاط الحزب الدستوري في تونس أثناء الإحتلال الألماني ، بكرة: 189، ملف: 3 ، ص: 285.

55 الشريف، الحركة الوطنية...، مقال مذكور.

56 انظر آجرون، مقال مذكور، ص37 .

انظر أيضا باليقران (أرتور): "مذكرات الحرب: نوفمبر 1942-جوان1943" [بالفرنسية]، تقديم وتحقيق قي داقاس، "*كراسات المتوسط*". نشر مركز المتوسط الحديث والمعاصر، جامعة نيس، 1986، ص.ص. 15-80 . (ص70 حول يوم 9 ماي 1943).

PELLEGRIN (Arthur): "Journal de Guerre: Nov.42-Juin43". Présentation et notes de Guy DAGAS, *Cahiers de la Méditerranée,* Centre de la Méditerranée Moderne et Contemporaine, Université de Nice, 1986. p.p.15-80,(Journée du 9 Mai, p.70).

السلطات الفرنسية على أنه عقاب ضروري لكل من ساوره الشك في قدرة فرنسا على الانتصار في النهاية. وهكذا انتشرت المحاكمات وصدر في فترة وجيزة مائتا حكم بالاعدام وخمسمائة حكم بالسجن[57] بالاضافة الى الغرامات والخطايا الثقيلة . أما في الجانب الفرنسي فلم يصدر سوى 25 حكما بالإعدام رغم كثرة عدد المتهمين "بالتعاون مع العدو"[58]، وهي تهمة شملت في منطق السلطة الفرنسية كل المعارضين للنظام الاستعماري[59].

57 بسيس (جوليات): "حول المنصف باي والمنصفية : تونس بين 1942 و 1948".[بالفرنسية]، *المجلة الفرنسية لتاريخ ما وراء البحار*، العدد 260-261. 1983. ص.ص. 97-131. عن تقرير لدوليتل.

BESSIS (Juliette): Sur Moncef Bey et le Moncéfisme; La Tunisie de 1942 à 1948. *Revue Française d'Histoire d'Outre-Mer*, N. 260-261, 1983, p.p. 97-131.

58 وجهت هذه التهمة إلى 700 فرنسي و 310 من التونسيين. انظر عميرة، مقال مذكور، ص 57.

59 علية الصغير، مقال مذكور، ص57.